العلاقة السياسية للمسلمين بالنصارى في الأندلس "الأسرى نموذجاً" (٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م : ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م)

د: إسلام إسماعيل عبد الفتاح محمد
دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

الملخـــــص:

لعب الأسرى دورًا هامًّا وحيويًّا في العلاقات السياسية بين المسلمين والنصارى في الأندلس منذ بداية عصر بنى الأحمر ٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م . وقد تجسد ذلك الدور في صور متعددة منها على سبيل المثال:

الأسرى النصارى في أيدى المسلمين، وعملية افتدائهم، وعلى الوجه الآخر الأسرى المسلمون في أيدى النصارى، وعملية افتدائهم. ولقد كان لذلك آثار إيجابية ساهمت في توطيد العلاقات السياسية، وآثار سلبية ساهمت في سقوط غرناطة.

Abstract

The political relationship of Muslims with the Christians in Andalusia, "the prisoners as a model" The prisoners played an important and vital role in the political relations between Muslims and Christians in Andalusia from the beginning of the Bani al-Ahmar era 635 AH / 1237 CE until the fall of Granada 897 AH / 1492 CE, and that role was embodied in several forms, including, for example: Christian prisoners in the hands of Muslims, And the process of their redemption, and on the other hand the Muslim captives in the hands of the Christians, and the process of their redemption. This had positive effects that contributed to the consolidation of political relations, and negative effects Granada

مقدمـــة :

لعب الأسرى أدوارًا مهمة في تلك الفترة التي نتحدث عنها نتيجة لكثرة أعدادهم، فلا سبيل إلى الشك في أن الحروب ضد الممالك النصرانية في الأندلس قد وفرت الكثير منهم ، كان وجود مملكة غرناطة في وسط دول نصرانية قد جعلها في حالة حرب مستمرة بينها وبين تلك الدول، وهو ما خلف عددًا كبيرًا من الأسرى لدى الطرفين، فعن طريق تلك الحروب والكمائن والغزوات، اجتمع في مملكة غرناطة عدد كبير من الأسرى النصارى، توزعوا في مناطق المملكة المختلفة، وخاصة في العاصمة ورندة ومالقة وألمرية [١]؛ إذ امتلأت بيوتات المسلمين وسجونهم في المملكة بالعديد من هؤلاء الأسرى النصارى، حتى وصل الأمر بالبعض أن يذكر أن عشر سكان غرناطة فقط كانوا مسلمين من الأصل، وأنه من بين مائتي ألف من سكان غرناطة لم يكن يوجد سوى خمسمائة من أصل عربي خالص، أما الباقي، فقد كانوا من نسل الذين تحولوا عن المسيحية إلى الإسلام [٢] وكان منهم العديد من أسرى الحروب.

أولاً: الأسرى النصارى في أيدي المسلمين منذ بداية عصر بني الأحمر ٦٣٥هـ/١٢٣٧م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢م.

دارت معركة حامية بين المسلمين والنصارى،لصد هجوم النصارى على الجزيرة الخضراء عام ٧١٢هـ/١٣١٢م، وكان النصر فيها من نصيب المسلمين، حيث استولى المسلمون على الكثير من الغنائم والأسرى[٣] . وفي عهد أبي الوليد إسماعيل في المعركة التي هزم فيها النصارى، قتل الوصيان على عرش قشتالة دون بيدرو ودون خوان ورهط كبير من الأمراء والنبلاء والأحبار، وغرق عدد آخر في نهر شنيل، وأسر من النصارى بضعة

---

[١] يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بنى الأحمر، ص٩٤.

[٢] في حين يرى ابن الخطيب أن سكان غرناطة كانت معظم أنسابهم عربية، ويعدد أسماء القبائل التي ينتسبون إليها (ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص١٣٥– ص١٣٦، انظر كذلك أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص٧٢، F.simonte,Historia de Los Mozarabes Espana,P.788

[٣] ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص٢٩٥، ص٢٩٦.

آلاف، حتى إن القتل والأسر قد استمر فيهم ثلاثة أيام، بل وصل الأمر إلى أن بيع الأسرى والغنائم قد استمر ستة أشهر متواصلة، ومع ذلك، بقي منها الكثير حتى ضجر الناس وملوا من ذلك[١]. وفي عهد السلطان يوسف الأول لما غزا الحاجب رضوان مدينة باغة Priego[٢] وأخذ بمخنقها وتملكها عنوة، ثم غزا لورقة ومرسية في محرم من عام ٧٣٤هـ/ أكتوبر ١٣٣١م، هاجم حصن المدور وعاد إلى غرناطة ومعه ما يقرب من ألف وخمسمائة أسير نصراني[٣]، وفي عهد السلطان أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البرميخو (٧٦١-٧٦٣هـ) (١٣٥٩-١٣٦١م)، وبعد أن أتاح له الله النصر على النصارى بظاهر وادي آش في عام ٧٦٢ هـ/١٣٦١م، عاد السلطان البرميخو ومعه أكثر من ألف ومائتي أسير من النصارى، فيهم الكبار والفرسان، حيث أدخلوا الحضرة في الحبال، وكانت تضيق عنهم الطريق والفضاء[٤]، كما يذكر أن السلطان محمدًا الخامس نازل مدينة أطريرة Utrerao [٥] في عام ٧٦٨هـ/١٣٦٧م، وناشبها القتال واستباح ربضها عنوة، حتى اضطر أهلها للالتجاء إلى قصبتها، فاشتد القتال بين الطرفين، وفي النهاية، انهزم القشتاليون،

---

(١) يذكر المقري أن المسلمين حصلوا على غنائم كثيرة بلغت القناطير من الذهب والفضة، وأسروا وسبوا نحو سبعة آلاف من الرجال والنساء، ومن بينهم زوجة بيدرو وأولاده (المقرى، نفح الطيب، جـ١، ص٤٤٩-ص٤٥١، انظر كذلك: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢٩٥، الإحاطة، جـ١، ص٢١٠، السلاوي، الاستقصا، جـ٣، ص١٠٩، ص١١٠).

(٢) باغه Priego : مدينة صغيرة القدرغير أنها في غاية الحسن والجمال؛ لكثرة مياهها، وهي من أعمال غرناطة، تقع الآن على بعد نحو مائة كيلومتر إلى شمال غرب مدينة غرناطة، وقد ذكرت بعدة أسماء مختلفة، فهى باغة وبيغو وباغو وذكر ياقوت أن بيغو من أعمال جيان.(العذرى، نصوص، ص٨٩، ص٩٣، ابن غالب، فرحة، ص٢٨٣، الإدريسى، نزهة، جـ٢، ص٥٧١، ياقوت، معجم، جـ١، ص٣٢٦، ص٥٣٢، ابن سعيد، المغرب، جـ٢، ص١٥٤، الحميري، صفة، ص٦٠، ص٦١).

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص٥٠٩، ص٥١٠.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٣٠٩.

(٥) أطريرة Utrerao: مدينة تقع في الجنوب الشرقى لمدينة إشبيلية على بعد ٣٩ كم منها (عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص١٤٨).

ودخل المسلمون المدينة واستولوا عليها، وأسروا ما يناهز خمسة آلاف أسير [١]. و لما أغار القشتاليون على شرق غرناطة في عهد السلطان محمد الأيسر، ردهم المسلمون بقيادة الوزير ابن عبد البر زعيم بني سراج، ثم هزموهم ثانية عند مدينة أرشذونةArchidona [٢]، حيث وقع العديد منهم إما قتلى وإما أسرى، وكان ذلك في سنة ٨٣٨ هـ/١٤٣٤ م [٣].

وعندما هاجم القشتاليون أحواز رندة في عام ٨٨٥هـ/١٤٨١م، رد السلطان أبو الحسن على بأن زحف على بلدة الصخرة، واستولى عليها عنوة وقتل وأسر الكثير من سكانها النصارى [٤]. ومما يذكر في هذا الصدد كذلك أن الزغل خرج في قواته من مالقة، ولقي النصارى على مقربة منها فهزمهم هزيمة ساحقة، وقتل وأسر منهم عدة آلاف كان من بينهم الكثير من الزعماء والأكابر، وكان ذلك في صفر ٨٨٨هـ/مارس ١٤٨٣م [٥]. ومما يؤثر عن

---

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص٨٢، ص٨٣، عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص ١٤٨.

(٢) أرشذونة Archidona: مدينة أندلسية قديمة تقع شمال شرقي مدينة مالقة قبلى مدينة قرطبة، وكانت قاعدة كورة رية، وقد ذكرت بعدة صيغ، مثل: أرجدونة وأرشذونة وأرجدونة (عن أرشذونة انظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٠٦، ابن غالب، فرحة، ص٢٤٦، الإدريسى، نزهة، جـ٢، ص٥٧٠، ياقوت، معجم، جـ١، ص١٤٤، ص١٥٢).

(٣) عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص١٦١.

(٤) ويذكر الأستاذ عنان طبقاً للرواية القشتالية أن فقيهاً شيخًا زاهداً عرف بنبوءاته كان من بين الوفود التى ذهبت غداة الانتصار إلى قصر الحمراء، وأنه صاح في وجه السلطان قائلاً :"ويل لنا لقد دنت ساعتك ياغرناطة، ولسوف تسقط أنقاض الصخرة فوق رؤوسنا، وقد حلت نهاية دولة الإسلام بالأندلس" (عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص١٩٥، وانظر كذلك شكري فرحات، غرناطة، ص٥٨، ، أسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص١٢٧، ص١٢٨، واشنطن آيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هانى يحيى نصرى، مؤسسة الانتشار العربى، لندن، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م، ص٧٥).

(٥) يذكر صاحب نبذة العصر في أخبار ملوك بنى نصر: "أنه في شهر صفر من عام ثمانية وثمانين وثمانمائة، اجتمع زعماء النصارى، واقتادهم جمع عظيم، ولم يكن معهم ملكهم، وقصدوا قرى بلش وشرقي مالقة، يريدون أخذ أهلها وفسادها ، فلما وصلوا تصايح أهل تلك الجهات واتجهوا رجالاً دون فرسان، وصاروا يعترضون النصارى في المضايق والأوعار والمخانق، ويقاتلونهم ويقتلون منهم خلقاً كثيراً (ثم يضيف)، وكان في وقت هذه الكائنة الأمير محمد بن سعد بمدينة مالقة، فلقي النصارى من ناحية، فقتل وأسر منهم أيضاً خلقاً كثيراً، وولوا الأدبار، وأسر منهم ماينيف على ألفي أسير فيهم جماعة من قوادهم وأقنادهم". (مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص١١).

السلطان أبي عبد الله محمد الصغير بعد رفضه مطالب فرناندو الخامس ملك قشتالة الخاصة بتسليم غرناطة أن خرجت قواته لمهاجمة الحصون القريبة، ففي شهر رمضان عام ٨٩٥هـ/١٤٩٠م خرج في قواته إلى قرية همدان Alhemdin[١] القريبة، ففتحها واستولى على مافيها من العتاد، وأسر منها نحو مائة وثمانين أسيرًا عاد بهم إلى غرناطة[٢] . ولم يقف الأمر عند سلاطين بنى الأحمر، إذ امتلأت أيدى سلاطين بنى مرين بالعديد من الأسرى النصارى، فيذكر في هذا الصدد أن السلطان أبا يوسف يعقوب المرينى عندما بعث ولده أبا زيان؛ لمقاتلة النصارى في الأندلس ٦٧٣ هـ/١٢٧٥م، نفذ أبو زيان إلى أراضي النصارى حتى شريش، وعاث فيها وعاد مثقلاً بالأسرى والسبى والغنائم [٣].

ولما عبر السلطان أبو يوسف للأندلس في سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م، توغل غازيًا في أراضى قشتالة حتى وصل إلى أحواز إشبيلية، ثم عاد إلى قواعده، وهو مثقل بالغنائم والأسرى النصارى[٤]. ويذكر كذلك أنه في أوائل عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م، عندما أراد

---

(١) قرية همدان Alhemdin :تقع جنوب غرب غرناطة على بعد بضعة كيلو مترات منها، ويبدو أن هذه القرية قد استعارت هذا الاسم من القبيلة المشهورة بذلك الاسم همدان(ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص١١٢، حاشية٦، عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص٢٣٤، حاشية ٣).

(٢) مؤلف مجهول، نبذه العصر، ص٣٣، ص٣٤، المقرى، نفح الطيب، جـ٤، ص٥٢٣.

(٣) مؤلف مجهول، الذخيرة، السنية، ص١٦٤، ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص٣١٤، السلاوى، الاستقصا، جـ٣، ص٣٩.

(٤) إذ يذكر صاحب الذخيرة السنية أن جملة الغنائم والأسرى بلغت مائة ألف رأس من البقر وسبعة وعشرين ألفًا، أما الغنم فلا تحصى، حتى بيعت الشاة منها بالجزيرة بدرهم، وكان عدد الأسرى من الرجال والنساء والذرية سبعة آلاف وثمانى وثلاثين نفساً، وعدد البغال والحمير أربعة عشر ألف رأس وستمائة رأس، وأما الدروع والسيوف والمغافر والتراس والبيضات فما لذلك عدد لكثرته، فامتلأت أيدو المسلمين وصلح حالهم وحال أهل الأندلس. (مؤلف مجهول، الذخيرة السنية، ص١٧٤، ص١٧٥، انظر كذلك ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص٣١٢، السلاوى، الاستقصا، جـ٣، ص٤١، عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص١٠١، محمد المنونى، ورقات، ص٢٨٢، ص٢٨٣).

السلطان أبو الحسن المرينى **الثأر لمقتل ابنه أبي مالك**[١] ، توافت الأساطيل المغربية بمرسى سبتة، وعقد لمحمد بن العزفي صاحب سبتة [٢] عليها، وقد رافق هذه الحملة السلطان أبو الحسن نفسه، والتقت الأساطيل النصرانية مع الأساطيل المغربية في معركة حامية، انتهت بفوز المسلمين، وقد غنمت الأساطيل المغربية كثيرًا من المال والسلاح، حيث سيقت الأساطيل النصرانية إلى مرسى سبتة ، فنزل منها الأسرى [٣].

ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد كانت عملية القطع أو القرصنة المستمرة مابين النصارى والمسلمين التي كان يقوم بها غالبًا سكان المدن الساحلية والمدن الثغرية

---

(١) ففي سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م هاجم النصارى غرناطة، فاستعان السلطان يوسف الأول بسلطان بنى مرين أبى الحسن الذي أرسل ابنه أبا مالك عبد الواحد بعساكر جمعهم من زناتة والمتطوعة، و أرسل إليه عددًا من الوزراء؛ لمساعدته في حملته، وأخذ هذا الأمير يجاهد ضد النصارى حتى قتل أثناء جهاده ضدهم. (السلاوي، الاستقصا، جـ٣، ص١٣٤، ص١٣٥).

(٢) بنو العزفي: كانوا من بيوتات سبتة المعروفه بالدين والعلم والرئاسة، وقد قام أبو القاسم العزفي بخدمات جليلة للمسلمين، ففي سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، بعث أبو القاسم العزفي أسطوله إلى مدينة أصيلا، وهدم أسوارها، خوفًا من احتلال الأسبان لها، وفي سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م، احتل مدينة طنجة، وكذلك استطاع أكثر من مرة تحذير أهالى المراسى والسواحل المغربية، قبل وقوع الغارة عليهم بوقت كاف، ولما قامت دولة بنى مرين، دخل بنو العزفي في صراع معهم، وفي النهاية، اتفق السلطان أبو يوسف يعقوب مع أبى القاسم العزفي أن يبقى محتفظاً بسبتة على أن يؤدى لسلطان المغرب خراجًا معلوماً كل سنة، واستمرت سبتة في طاعة بني العزفي حتى استولى عليها سلطان غزناطة أبوسعيد فرج بن إسماعيل بن الأحمر صاحب مالقة عام٧٠٣هـ/١٣٠٣م ، ثم استعادها سلطان المغرب أبو الربيع سليمان المرينى عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وظل بنو العزفي يتمتعون بنفوذهم القديم في ظل الدولة المرينية. (السلاوي، الاستقصا، جـ٣، ص٣٤، ص٣٥، ص٥١، ص٨٢، ص١٠١، ص١١٣– ص١١٥، أحمد مختار العبادي، دراسات، ص٣٧٨– ص٣٨٠ حاشية١).

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٤، ص٣٢١، ص٣٢٢، السلاوي، الاستقصا، جـ٣، ص١٣٥، ص١٣٦.

بطريقة عشوائية على ثغور النصارى أحيانًا دون علم الحكومة المركزية [١] تأتى بالعديد من هؤلاء الأسرى النصارى، مثل ما ذكره المؤرخ ابن فضل الله العمري بقوله: "وبالبلاد البحرية أسطول حراريق[٢] للغزو في البحر الشامى يركبها الأنجاد من الرماة والمغاورين والرؤساء المهرة، فيقاتلون العدو على ظهر البحر، وهم الظافرون في الغالب، ويغيرون على بلاد النصارى بالساحل أو بقرب الساحل، فيستأصلون أهلها ذكورهم وإناثهم، ويأتون بهم بلاد المسلمين فيبرزون بهم، ويحملونهم إلى غرناطة إلى السلطان، فيأخذ منهم مايشاء ويهدي ويبيع"[٣].

ثانياً: عملية افتداء الأسرى النصارى من أيدى المسلمين منذ بداية عصر بني الأحمر ٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م

كان حرص ملوك النصارى، سواءٌ أكانوا من قشتالة أم آراجون على فك أسراهم من أيدى المسلمين أهم ما يميز عددًا من المراسلات وبنود عدد من المعاهدات التي عقدت بينهم وبين بعض من سلاطين غرناطة، مثال ذلك تلك المعاهدة التي عقدت ما بين إسماعيل الأول(٧١٣– ٧٢٥هـ) (١٣١٣–١٣٢٤م) وخايمى الثاني Jaim (٦٩٠– ٧٢٨هـ) (١٢٩١–

---

(١) كان إسماعيل الأول سلطان غرناطة يدافع عما قام به بعض القراصنة المسلمين، مثل القرصان ابن جندى الذي أغار على أرغون وأسر بعض النصارى منها، وهو في الواقع تابع للحفصيين ببجاية، ولا يستطيع صاحب غرناطة معاقبته أو مطالبته بتسريح أسراه. (عمر سعيدان، العلاقات الأسبانية الأندلسية، جـ١، الوثيقة رقم٢٣، ص١٥٣) وفي بعض الأحيان كان يقوم بعملية الأسر أشخاص ليس لهم صلة بالقراصنة أو بالحرب، بل من عامة الناس، وهذا ما يحدثنا به ابن الخطيب من أن طبيباً غرناطياً يدعى عبد الله بن الزبير لقي بفحص غرناطة سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٥م نصرانيًّا يتجسس، فأسره وجره، وأدخله البلد، ولم يلتفت إلى ثمنه استكتامًا لتلك الفعلة (ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٣، ص٤١٩).

(٢) الحراريق: هي نوع من السفن الحربية تستخدم لحمل الأسلحة النارية، كالنار الإغريقية (السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣، جـ١، ص١٣٤، درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م، ص١٠٤).

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص٤٤– ص٥٠.

١٣٢٧م) التي نصت على تبادل الأسرى[١] ، كما نصت بنود معاهدة السلام بين محمد الرابع(٧٢٥- ٧٣٣هـ) (١٣٢٤-١٣٣٢م) وخايمي الثاني على تحرير الأسرى من الجانبين [٢]. وهناك كذلك أيضًا عدد من المراسلات التى حدثت ما بين ألفونسو الرابع ملك آراجون Alfonso IV (٧٢٨- ٧٣٧هـ) (١٣٢٧-١٣٣٦ م) [٣] ويوسف الأول سلطان غرناطة، ودارت في معظمها حول الأسرى القطلانيين المأخوذين بعد عهد الصلح بينهم والعمل على

---

(١) ففي سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م جدد السلطان إسماعيل معاهدة الصلح مع ملك آراجون خايمى الثاني، وقد نصت بنود المعاهدة، على أن يعقد بين الفريقين صلح ثابت لمدة خمسة أعوام، على أن تؤمن خلالها أرض المسلمين بالأندلس وأرض آراجون براً وبحراً سراً وجهرًا لأهل غرناطة بالأندلس؛ للإبحار بحرية، ومنها تسريح من يقع أسره من أهل البلدين أو أجفانه براً وبحراً وإرجاعه ببضائعه وأمواله. (عن هذه المعاهدة انظر: عمر سعيدان، العلاقات الأسبانية الأندلسية، جـ١، ص٧٦- ص٨٤).

(٢) ففي سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، بعث محمد الرابع إلى خايمي الثاني في تجديد عقد الصلح الذي ذكرناه سابقاً المبرم بين ملك غرناطة إسماعيل الأول والده وملك آرغون خايمي الثاني، وكان من بين بنود هذه المعاهدة تردد أهل القطرين وأجفانهما إلى سواحل غرناطة وآرغون في حرية كاملة ومنع القطع والتعرض للأجفان أو الاستيلاء على ما فيها أو الإغارة على المراسي والأراضي وأسر المسلمين أو النصارى التابعين للبلدين وعدم منع المسلمين الساكنين بآرغون من مغادرة البلاد إلى غرناطة بأموالهم وأمتعتهم، إن كانوا راغبين عن طواعية في ذلك وعدم الإضرار بهم أو التعسف عليهم. (عن عن هذه المعاهدة انظر: عمر سعيدان، العلاقات الأسبانية، جـ١، الوثيقة رقم٢٧، ص١٧٣- ص١٧٩) وإثباتًا لحسن النوايا، بادر محمد الرابع بتسريح أربعة من النصارى من أسرى أرغون وتوجيههم مع الرسولين إلى ملك آرغون راجياً أن يحدث تسريح المسلمين الموجودين بأرغون، مقابل ذلك، كما أكد أنه أذن بالبحث عن بقية النصارى المأسورين من بلاد آرغون وتسريحهم في أسرع وقت. (عمر سعيدان، العلاقات الأسبانية، الوثيقة رقم ٢٦، ص ١٦٧ – ص ١٧٢).

(٣) ألفونسو الرابع ملك آراجون Alfonso IV (٧٢٨-٧٣٧هـ) (١٣٢٧- ١٣٣٦م): حكم مملكة آراجون من سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م حتى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م؛ إذ خلف والده خايمى الثانى، وكان أميرًا ضعيفًا؛ إذ زاد في عهده طغيان النبلاء، واشتد إرهاقهم للعرش، فأرغموا ألفونسو الرابع على أن يصدر لهم مرسومًا يسمى بمرسوم الاتحاد من بين بنوده أن لاتجوز معاقبتهم فيما يتعلق بالنفس والمال إلا بحكم القانون، وأن يكون لهم حق اختيار القاضى الأكبر، وأن يقوموا بالدفاع المسلح عن أنفسهم، حينما يشعرون بما يهددهم. عن ألفونسو الرابع انظر: عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص١٧٧.

تسريحهم [١]. ويذكر أيضًا أنه عندما استأثر يوسف الثاني بالسلطة، كتب إلى ملك قشتالة هنري الثالث Enrique (٧٩٣– ٨٠٩هـ)(١٣٩٠–١٤٠٦م) [٢] في طلب المهادنة والسلم، فأطلق سراح عدد من الفرسان النصارى الذين أسروا في بعض المعارك السابقة، وأرسلهم مكرمين إلى بلاط إشبيلية، فاستجاب ملك قشتالة إلى دعوته وعقد السلم بين المملكتين[٣] . وفي ربيع الأول من سنة ٨٠٨هـ/الموافق سبتمبر ١٤٠٥م. عقدت بين السلطان محمد بن يوسف الثانى ومرتين ملك آراجون وولده مرتين ملك صقلية معاهدة صداقة، من بين بنودها أنه إذا كان لدى الطرفين أسرى من رعايا الطرف الآخر، فإنه يفك أسرهم لقاء دفع **مائة دينار ذهبًا عن الشخص الواحد**، فإن كان الأسير ملكًا لأحد رعايا أى الطرفين، فإنه يسمح بفك أسره، نظير دفع الثمن الذى اشترى به، ويلتزم كل من الفريقين بألا يخفي، أو يغيب أحدًا من الأسرى، وأنه

---

[١] منها الوثيقة رقم ٤٠ في أرشيف التاج الآرغونى المؤرخة في ٣٠ جمادى الثانية من عام ٧٣٥هـ/ الموافق ٢٤ من سنة ١٣٣٥م، وهي عبارة عن رسالة بعث بها يوسف الأول سلطان غرناطة إلى ألفونسو الرابع ملك آرغون بعد أشهر من انعقاد الصلح بين البلدين، توضح حدوث قطع خطير يخالف بنود الصلح، وهو إقدام عدد من القطاع الجنويين على أسر أشخاص قطلانيين وبيعهم بالمرية، وهذا شيء يتنافي مع نص المعاهدة والوفاء؛ إذ يوضح يوسف الأول لألفونسو أن سماح رجال الدولة ببيع هؤلاء الأسرى لعدم تعرفهم على هويتهم القطلانية وعدم علمهم بأنهم من رعايا آرغون، وأنه سيبحث عن هؤلاء الأسرى بالمرية = ويردهم إلى أهلهم بآرغون. (عن هذه الوثيقة انظر: عمر سعيدان، العلاقات الأسبانية، جـ١، الوثيقة رقم٤٠، ص٢٠٨– ص٢١١) ومنها رسالة بعث بها يوسف الأول إلى ألفونسو الرابع بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ٧٣٥ هـ/ ٢٦ يوليو عام ١٣٣٥م؛ للرد على رسالة ألفونسو حول انتهاكات عقد الصلح بأسر لعدد من نصارى آرغون كان غالبيتهم من التجار الذين يطمئنون إلى عقود الصلح ويبادرون بالسفر والمخاطرة للمتاجرة والربح (عمر سعيدان، العلاقات الأسبانية، جـ١، الوثيقة رقم٤٢، ص٢٢٧– ص٢٣١).

[٢] هنري الثالث Enrique III (٧٩٣– ٨٠٩ هـ) (١٣٩٠– ١٤٠٦ م): خلف والده خوان الأول على أثر سقوطه من فوق جواده قتيلاً عام ٧٩٣ هـ/١٣٩٠ م، وكان ولا يزال حدثاً، ولم يطل حكمه حينما بلغ الرشد سوى أعوام قلائل، وفي عهده نشبت الحرب حينًا بينه وبين مملكة غرناطة، وانتهت بعقد هدنة بين الفريقين، ثم توفي في أواخر ٨٠٩ هـ/١٤٠٦ م (عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص١٧٤، ص١٧٥).

[٣] المرجع السابق، جـ٧، ص١٤٩.

إذا دخل مجاورون تابعون لأحد الطرفين في أرض الآخر، واحتملوا منها أسرى أو بضائع، فإنها تطلب ممن استقر لديه ويأمر قائد الموضع الذى به الأسرى والبضائع بردها لمن أخذت منهم وبالبحث عن الفاعلين ومعاقبتهم.[١]

ويذكر كذلك، إنه لما اشتد عدوان النصارى على أراضي المسلمين، رأى السلطان يوسف الثالث أن يسعى إلى عقد الهدنة مع قشتالة، حقناً للدماء وعقد السلم بين الفريقين وإثباتًا لحسن النوايا، أطلق ملك غرناطة سراح بضع مئات من الأسرى النصارى دون فدية[٢]، ولما عاد أبو عبد الله محمد بن يوسف الثالث الملقب بالأيسر إلى حكم غرناطة، أرسل إلى ملك قشتالة خوان الثانى في تجديد الهدنة، فبعث إليه ملك قشتالة سفيره جونثالث دي لونا، واشترط لتجديدها أن يؤدي الأيسر ما أنفقه بلاط قشتالة في سبيل استرداده عرشه، وأن يفرج عن سائر النصارى الموجودين ببلاده، فرفض الأيسر وهدد ملك قشتالة بالحرب [٣]. وفي سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٦م عندما هاجم القشتاليون المناطق المجاورة لمالقة، لم تنسحب تلك الحشود إلا بعدما دفع الأمير سعد اثنى عشر ألفًا من الفضة، وأطلق سراح ستمائة أسير[٤]، كذلك تعهد يوسف المول لملك قشتالة إن حصل على الملك، فإنه يتعهد بتحرير الأسرى النصارى في مملكة غرناطة. [٥]

وفي أوائل حكم السلطان أبى الحسن على عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م، أرسل إلى ملكي قشتالة فرناندو وإيسابيلا، يطلب تجديد الهدنة القائمة، فوافقا على طلبه، بشرط أن تعترف مملكة غرناطة بطاعتهما، وأن تؤدي إلى قشتالة الجزية نفسها من المال والأسرى التي كان يؤديها السلاطين السالفون[٦] . وعندما أسر السلطان أبو عبد الله محمد، حاول السلطان أبو

---

(١) نفسه، جـ٧، ص١٥٢، ص١٥٣.

(٢) نفسه، جـ٧، ص١٥٣.

(٣) عبدالله عنان ، دولة الإسلام، جـ٧، ص١٥٨.

(٤) يوسف شكرى، فرحات، غرناطة، ص٤٦.

(٥) عنان، وثيقة أندلسية، ص٣٨– ص٤٥، الطوخى، مظاهر الحضارة، ص٧٠

Fernandes (Luis suarez) Junall La frontera de Granada,p.39–42.

(٦) عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص١٩٤.

الحسن على والده افتداءه، وعرض على فرناندو نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة، وأن يطلق عددًا من أكابر النصارى المأسورين، فرفض فرناندو، وآثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين[١] ، ولما حصل الاتفاق على إطلاق سراحه فيما بعد، كان من ضمن شروط إطلاق سراحه أن يفرج عن أربعمائة أسير من أسرى النصارى في غرناطة، يختارهم ملكهم، ثم يطلق في كل عام سبعين أسيرًا، وذلك لمدة خمسة أعوام[٢] .

وكان من بين شروط تسليم مدينة لوشة للنصارى عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م، أن تسلم المدينة إلى ملك قشتالة فرناندو الخامس مع سائر الأسرى النصارى [٣]، وكان من بين شروط تسليم غرناطة أنه وقت **تسليم المدينة يفرج عن** سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيدي المسلمين دون أية فدية، وألا يطلب من أي مسلم كان قد هدد أو جرح أو قتل أسيراً أو أسيرة نصرانية ليس أو ليست في حوزته رده أو ردها الآن أو فيما بعد، وبعد التسليم، أفرج عن رهائن المسلمين الخمسمائة، وأفرج المسلمون من جانبهم عن الأسرى النصارى، وكان عددهم نحو سبعمائة أسير[٤].

---

(١) المرجع السابق ، جـ٧، ص٢٠٤.

(٢) نفسه، جـ٧، ص٢٠٥، العبادى، دراسات، ص٤٦٥، أسعد حومد، محنة العرب، ص١٣٢. نفسه، جـ٧، ص٢٠٥، العبادي، دراسات، ص٤٦٥، أسعد حومد، محنة العرب، ص١٣٢.

(٣) ففي سنة ٨٩١ هـ/ ١٤٨٦ م استغل ملك قشتالة فرناندو الخامس الفتنة القائمة بين السلطان أبى عبد الله محمد وعمه السلطان الزغل، وزحف إلى مدينة لوشة، وشدد الحصار عليها، وسلط على أسوارها الأنفاط والعدد، وأبدى المسلمون بسالة فائقة في الدفاع عن لوشة، فلما رأى أهلها مالا طاقة لهم به من شدة الحصار وكثرة جموع النصارى وتأخر أهل غرناطة عن نصرتهم، طلبوا الأمان على أن يخرجوا مؤمنين بأموالهم وأولادهم وخيلهم وسلاحهم ودوابهم وجميع ما يقدرون على حمله، فأجابهم العدو لذلك، فأخذوا يخلون البلاد، ووصلوا إلى غرناطة، وكان استيلاء النصارى على لوشة في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٨٩١ هـ/ مايو سنة ١٤٨٦ م.(مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص١٧، المقرى، نفح الطيب، جـ٧، ص٥١٧، ص٥١٨، عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص٢٠٩، ص٢١٠).

(٤) عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص٢٤٩، ص٢٥٠، ص٢٦١، Los capitulociones Para,LaEntrega de.
Granada,Por Miguel Garrido Atienza,Granada,1910,P.269-295.

ولم يقتصر الأمر على هذه الاتفاقات والمعاهدات والمراسلات التى وقعت بين مملكة غرناطة والدول المعنية بالأمر، بل نجد أن الأغنياء من الأشراف والتجار والأفراد من النصارى أسهموا بتحرير عدد من هؤلاء الأسرى، مثل ما قام به تاجران من إيطاليا يدعى أحدهما جيسار لوتسيا، والآخر برتلومى الجنوى، كانا يقيمان في غرناطة، استطاعا باتصالاتهما بحكام غرناطة وملك البرتغال أن يحررا عددًا من الأسرى لا بأس به في كلا البلدين، كما كان لرجال الدين دور مهم خلال تلك الفترة في فك الأسرى النصارى، مثلما يذكر أن رهبان دير سيلوس استطاعوا أن يحرروا أكثر من أربعمائة أسير، وعندما استيق عدد من أسرى مدينة مرسية إلى غرناطة، قام اثنان من رهبان دير سيدة "غوادلوب" بافتداء أسر أولئك الرجال، كما قام كريستوبال سوليس ومعه الأخ ألفونسو بريروا بافتداء مائة وثمانين أسيرًا، واسترد ستون أسيرًا حريتهم سنة ٨٨٢هـ/١٤٤٧م، وذلك بعدما دفع الرهبان عنهم الفدية [١].

ولما وقع سان بدرو بسكوال San Pedro Poscual مطران جيان في الأسر عندما كان يمارس مهامه في آراجون عام ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م ، أخذ إلى غرناطة، وهناك خفف الآلام عن رفاقه من الأسرى النصارى، ويبعث فيهم الإيمان من جديد، وهوما أثار سخط المسلمين، فأطاحوا برأسه عام ٧٠٢هـ/ ١٣٠٠م [٢]، بل وصل الأمر إلى أن بعض النصارى كانوا يوصون بشطر من أموالهم؛ لفك أسراهم في بلاد المسلمين، مثل وصية رجل يدعى دون رودريقه شلبطورس، حيث أوصى بفك أسارى النصارى العمال في أسر المسلمين بخمسمائة مثقال، وفي وصية أخرى لرجل يدعى دون غنصاليه مؤرخة في سنة ٦٧١هـ/أكتوبر ١٢٧٢م أمر أن يعطى في فك أسارى من بلاد الإسلام ستون مثقالاً، وفي وصية أخرى لدون يدعى بطره شانجة أمر فيها بأن يفك زوجان من النصارى، أسيران في بلاد الإسلام، فيؤخذ من ماله ما يحقق ذلك. [٣] وفي بعض الأحيان، كان أهالى المأسورين أو المختطفين هم من يسعون لفك أسر ذويهم من يد من أسرهم؛ إذ يوكلون لهذه العملية

---

[١] يوسف شكرى، فرحات، غرناطة، ص٩٥، ص٩٦،
1962,P.96 Guadalupe,Barcelona, F.German,Rubio,Historia de Nuestra,senora de

[٢] أحمد محمد الطوخى، مظاهر الحضارة، ص١٠٤،
Simonet,Historia de LosMozarabes,p.789

[٣] عن هذه الوصايا انظر: شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، جـ١، ص٤١٧، ص٤١٨.

أشخاصًا يطلق عليهم اسم الفكاكين، أو كان هؤلاء الأشخاص يتقنون العربية والقشتالية من أجل القيام بدور الوساطة بين الفريقين، وبالتأكيد كانوا يحصلون على أجر نظير قيامهم بتلك المهام؛ إذ كانوا موضع ثقة الفريقين، وقد ذكرت أسماء بعض منهم، أمثال برنغر سنيانا من مرسية ومارتين دى لارا وفرناندو أرياس وسعد الأمين الغرناطى [١].

وقد يفتدى أسرى النصارى أنفسهم، وذلك بشراء أنفسهم من أسيادهم، وعادةً كان يكتب عقد بذلك بينهم وبين من فكهم بأنهم أحرار، ويذكر كذلك أن من كان يكتب هذه العقود أى عقود الافتداء تلك علماء وشيوخ وأهل الفتوى وطلبة من أهل العلم بغرناطة، فقد سأل ابن الحاج عن جماعة من أسرى النصارى، وجدهم المسلمون بقرب أرض الروم يريدون الرجوع لبلادهم، فأخذهم المسلمون وأرادوا بيعهم، فاستظهر هؤلاء النصارى بعقود مكتوب بعضها بمالقة، وبعضها بمراكش، تقتضى شراء بعضهم لنفسه من سيده، وافتداء النصارى لبعضهم وعتق بعضهم [٢] .

وكان يفتدى الأسرى بالسعر المحدد حسب مايراه مختطفوهم أو من أسرهم، وعلى الرغم من تلك الافتداءات العديدة للأسرى النصارى التي ذكرناها، فقد وجد عدد لا بأس به منهم في المدن الأندلسية التي استردها النصارى من المسلمين، فيذكر أنه عندما دخل النصارى إلى مدينة رندة عام ٨٩٠ هـ/١٤٨٥ م، وجد بها أربعمائة أسير نصراني[٣]، ووجد في لوشة بعد استردادها عام ٨٩١هـ/١٤٨٩م مائة وأربعون أسيرًا [٤] وفي غرناطة، وجد النصارى

---

[١] يوسف شكرى فرحات، غرناطة، ص٩٦،Ramos Loscertales,ELcautiverio.
En la corona de Aragon Durante Los siglos XIII, XIV, y XV, Saragoza, 1915, Reed 1962, P.125.

[٢] المرجع السابق ، جـ٢، ص١٧٩، ص١٩٧.

[٣] أحمد محمد الطوخي، مظاهر، ص١٤٠، يوسف شكري فرحات، غرناطة، ص٩٤، فيذكر صاحب كتاب نبذة العصرأنه في العشر الأول من جمادى الأولى عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م "خرج العدو أيضًا بمحلته فقصد مدينة رندة، فقاتلها قتالاً شديداً، وقرب إليها أنفاطه حتى هدم بعض أسوارها، فلما رأى أهلها مالا طاقة لهم به، طلبوا الأمان، وخرجوا مؤمنين بما معهم. فلما استولى العدو على مدينة رندة، دخلت تلك الجهات كلها في ذمته من غير قتال". (مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص١٣، ص١٤).

[٤] أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص١٤٠، يوسف شكري فرحات، غرناطة، ص ٩٤.

سبعمائة أسير ما بين رجل وامرأة [١]. ويذكر أن ماركيز قادس عثر على أسرى مسيحيين في إحد المطابق عندما غزا الحامة عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م[٢]. أما من لا يحصل لهم نصيب في الافتداء، فإنهم يصبحون عبيدًا؛ إذ كانوا هدفًا لتجارة مربحة، فقد باع أهالى غرناطة في سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م عددًا من الأسرى القطلان إلى تلمسان في المرية[٣]، كذلك بيع مواطن من جيان يدعى دومنجو Domingo في وادى آش، ثم نقل إلى المرية، حيث أعيد بيعه مرة أخرى لأحد رعايا السلطان الغرناطى [٤]. وغالباً ما كانت تغل أرجل هؤلاء الأسرى بالحديد، ويوضعون في المطبق، وهو سجن مقسم إلى زنزانات تستقبل كل واحدة منها من أحد عشر أسيرًا إلى ستة وعشرين أسيرًا، كما وجدت مجموعة من السلاسل التى كانت تقيد هؤلاء الأسرى في مالقة والمرية ولا تزال إلى اليوم معلقة على الجدران الخارجية لكنيسة القديس يوسف بمدينة طليطلة [٥]

ثالثـاً: الأسـرى المسـلمون فـي أيـدي النصـارى منـذ بدايـة عصـر بنـي الأحمـر ٦٣٥هـ/١٢٣٧م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م

وعلى الوجه الآخر، نجد أن عدد الأسرى المسلمين في الأراضى المسيحية سواءٌ أكانوا في قشتالة أم آراجون أم البرتغال كان كبيرًا أيضًا، فقد وفرت المعارك المستمرة والكمائن والغزوات بالإضافة إلى أعمال القرصنة التى كان يقوم بها القراصنة النصارى أعدادًا لا حصر لها من هؤلاء الأسرى المسلمين، فيذكر أنه عندما قام فرناندو الثالث بمحاولته الأولى

---

[١] يوسف شكري فرحات، غرناطة، ص٩٤.

[٢] أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص١٤٠.

[٣] J.Ramos, loscertales elcautiverio enla corona de Aragon, pp. 185-186.

[٤] J.cossio, cautivos de Moros en siglo XIII, pp. 71.

[٥] Leopoldo Torres balbás, las Mazmorras de la Alhambra, Al – Andalus, vol IX, 1944, Fasc.I, pp. 198-218. ويبدو أن هذا السجن كان يقع بالقرب من مقبرة السبيكة وباب يسمى الرمان؛ إذ يذكر الرحالة مونزر الذي زار غرناطة بعد سقوطها بعامين في يد الملكين الكاثوليكيين، أنه صعد إلى الحمراء عن طريق جبل عال جداً، وأن سفحه به= =مقبرة كبيرة، ثم يدخل منه إلى مكان كان مخصصاً للأسرى المسيحيين. Múnzer, viaje por Espana y Portugal, (B.R.A.H)t. LXXX. IV, 1924, p.87.

لفتح إشبيلية، سار في قواته صوبها وعبر الوادي الكبير تجاه قرمونة، وأخذ يفسد زروع هذه المنطقة، ويخرب ضياعها، ويأسر **من يلقى من المسلمين** [١]، وكانت هذه أول مرحلة في فتح المدينة، حيث يذكر أنه في صيف عام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م هاجم قرمونة، وسار في قواته صوب إشبيلية، حيث سار إلى قنطلانة Cantillana [٢] شمال إشبيلية، وهاجمها بشدة، واقتحمها عنوة، وأسر منها حوالي سبعمائة مسلم [٣]. وعندما دخل النصارى مدينة أستجة عام ٦٦٢ هـ/١٢٦٣ م عقب تسليمها بالأمان بعد أن نزل ابن يونس عنها للنصارى، يذكر أنه قد دخلها النصارى دون خيل وقتلوا وأسروا وسبوا الكثير من أهلها، وذلك على الرغم من تسليمها بالأمان لهم [٤].

والأمر الذي لا شك فيه كذلك أن موقعة طريف عام٧٤١هـ/١٣٤٠م والتي هزم فيها المسلمون، وقتل منهم عدد جم قد سقط فيها عدد آخر منهم أسرى في أيدى النصارى، كما سقط معسكر سلطان المغرب أبى الحسن في يد النصارى، وفيه حريمه وحشمه وبعض أولاده، فذبحوا جميعًا بوحشية مروعة، وقد حدث وقتئذ أن الأمير تاشفين ابن السلطان أبى الحسن جمع فرقة من الجيش، وهاجم النصارى في جانب منهم، ولكنه غلب كذلك على أمره، وسقط هو الآخر أسيرًا في أيديهم [٥]. وفي عام ٨٣٥ هـ/١٤٣١ م هاجم النصارى

---

[١] ففي خريف سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م حشد ملك قشتالة فرناندو الثالث قواته، وسار متجهاً نحو إشبيلية، وأخذ ينتسف الزروع، ويخرب الضياع، وعلى مقربة من قرمونة وافاه حليفه محمد بن الأحمر في قوة من خمسمائة فارس، وسار الجميع نحو قلعة جابر، وأقنع ابن الأحمر حاميتها بالتسليم، ثم بعث بحملتين: إحداهما لكى تعبر الوادى الكبير غرباً، وتخرب فحص الشرف الممتد أمام إشبيلية، والآخرى تخرب فحص شريش، ولكن ورد خبر وفاة والدته، فانصرف ملك غرناطة بقواته، وأمر باختتام الغزو. (راجع مؤلف مجهول، الذخيرة السنية، ص٧٢، ص٧٣، عنان، دولة الإسلام، جـ٦، ص٤٧٤).

[٢] قنطلانة cantillana: تقع شمالى إشبيلية على نهر الوادى الكبير (عنان، دولة الإسلام، جـ٦، ص٤٧٦، حاشية٣).

[٣] عنان، دولة الإسلام، جـ٦، ص ٤٧٦.

[٤] مؤلف مجهول، الذخيرة السنية، ص ١١٢.

[٥] ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص١٠٥، ص١٠٦، ابن خلدون، العبر، جـ٤، ص٢٠٩، المقرى، نفح الطيب، جـ٥، ص١٥، السلاوى، الاستقصا، جـ٣، ص ١٣٧.

أراضـي المسلمين، وقصـدوا أحواز رنـدة، فهـرع السـلطان الأيسـر إلـى لقـائهم، واسـتطاع أن يردهم في البداية، ولكن ملك قشتالة خوان الثانى قدم بعدئذ بنفسه بقوات كبيرة، وزحف على حصن اللوز وأرشذونة، وعاث في تلك المنطقة، ثم عاد إلى قرطبة ومعه الكثير من الأسرى والغنائم [١] .

ويذكر كذلك أنه لما توفي خوان الثاني ملك قشتالة عام ٨٥٩هـ/١٤٥٤م وخلفه ولده هنرى الرابـع Enrique IV (٨٥٩– ٨٧٩ هـ) (١٤٥٤– ١٤٧٤ م) [٢] رفـض ابـن إسـماعيل الاعتراف من جانبه بحماية ملك قشتالة لـه، وقام وأغار على الأراضـى القشتالية فسار ملك قشتالة إلـى أراضـى غرناطـة فـي جيش ضـخم، وعـاث فيهـا، وخـرب المـروج والضـياع وقتل وأسر وسبى من أهلها جموعًا كبيرة، وكان ذلك في عام ٨٦٠ هـ/١٤٥٦ م[٣] . ويذكر أنـه لمـا فتح النصـارى مدينـة الحامـة عـام٨٨٧ هـ/ فبراير سـنة ١٤٨٢م، أمعنـوا فـي أهلهـا قتلاً وأسرًا وسبيًا [٤] ، كما أن موقعة اللسانة قد قتل وأسر فيها الكثير من المسلمين، وكان من بين أسرى المسلمين سلطان غرناطة نفسه أبو عبد الله محمد الصغير [٥] ، ويذكر في هذا

---

[١] عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص ١٥٨، Rachel Arie, el Rino Nasri de Granada (1232–1492) Madrid, 1992, p. 232.

[٢] هنرى الرابع Enrique IV (٨٥٩– ٨٧٩ هـ) (١٤٥٤– ١٤٧٤ م): يذكر أنه لما توفي خوان الثانى في ٨٥٩ هـ/ يوليو ١٤٥٤ م، خلفه ولده هنرى على عرش قشتالة، وكان أميراً ضعيفاً منحلاً، حتى إنه لقب بالعاجز، وكان عصره عصر فوضى وركود، وكان من أعظم الحوادث في عصره استيلاؤه على جبل طارق نهائياً من أيدى المسلمين عام ٨٦٧ هـ/ ١٤٦٢ م، توفي هنري الرابع في سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م بعد أن حكم مملكة قشتالة لأكثر من عشرين عاماً. عن هنري الرابع انظر: عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص١٧٥، ص١٧٦، العبادي، دراسات، ص٤٦٢.

[٣] عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص١٦٤، ص١٦٥، يوسف شكري فرحات، غرناطة، ص٤٦، مارمول، إفريقيا، جـ٢، ص٤٢٠.

[٤] مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص٨، ص٩.

[٥] المصدر السابق، ص١٢، عن رحلة الرحالة المصري عبد الباسط المسماة بالروض الباسم ،(G.levi della vida, il Regno Di Granata. P. 328.) المقري، نفح الطيب، جـ٤، ص٥١٥، السلاوى، الاستقصا، جـ٤، ص٣٢، العبادى، دراسات، ص٤٦٥.

الصدد أيضًا، أن فرناندو الخامس ملك قشتالة أثناء حصاره لغرناطة، بعث جنده إلى حقول البشرات القريبة، فأتلف زروعها، وهدم قراها وأمعن في أهلها قتلاً وأسرًا [١]

ولم يقتصر الأمر على تلك الغزوات والمعارك، فقد كانت غارات النصارى وكمائنهم تخرج إلى المدن الأندلسية المختلفة من حين إلى آخر؛ لتأسر عددًا آخر من المسلمين، فعندما زار الرحالة المصرى عبد الباسط الأندلس يذكر في كتابه المسمى الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم " أنه يوم الثلاثاء سادس وعشرين جمادى الأولى من سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٥م، هجم جمع من الفرنج البرطقال على بعض الطواحين خارج مالقة، فأسروا عدة من المسلمين ممن كان بالطاحون المذكور، ثم ورد الخبر بأن أسيرًا من الكفار ممن أسلم بهذه البلاد ثم هرب من مالقة هو الذي أتى دليلاً مع هؤلاء الكفار بعد ارتداده، وفعل معهم ما فعل لهذه الطاحون". [٢] وقد أشار ابن بطوطة أيضًا إلى أنه عندما زار مملكة غرناطة، ونزل بمدينة مالقة، رأى أربعة أجفان [٣] نصرانية ظهرت هنالك، ونزل بعض من عمارتها إلى البر في منطقة سهيل بين مربلة Marbella [٤] ومالقة، فمر بهم فرسان خارجون من مربلة، وكانوا اثني عشر فارسًا، فقتل النصارى أحدهم وفر واحد وأسروا العشرة الباقين [٥] ، كذلك اشتدت حركة القراصنة من الأسبان المسيحيين ضد المسلمين، ووفرت العديد من هؤلاء الأسرى؛ إذ كانت الطرق البحرية خلال تلك الفترة غير مأمونة الجانب، وكانت محفوفة بالمخاطر والمصاعب من قطع وأسر وغرق للسفن وغيره، فيذكر أنه عندما خرج إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم رسولاً من قبل سلطان غرناطة محمد الخامس إلى صاحب تلمسان السلطان أحمد بن موسى بن يوسف بن زيان (٧٦٠– ٧٦١هـ)

---

[١] مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص٣٧، السلاوي، الاستقصا، جـ٤، ص١٠٣.

[٢] رحلة عبد الباسط المسماة بالروض الباسم، G.levi Della vida, il Regno Di Granata. P. 312

[٣] الأجفان: نوع من المراكب وهناك منها نوعان: الأجفان الغزوية، والأجفان الأخرى التى تستخدم لنقل الخيل (أحمد محمد الطوخى، مظاهر، ص٢٥٠).

[٤] مربلة Marbella: مدينة صغيرة ويحيط بها سور من بناء الأول، وبها جبل منيف عال، ولها عمارات وأشجار، وتشتهر بالتين، وتقع إلى الجنوب الغربى من مالقة (الإدريسى، نزهة المشاق، جـ٢، ص٥٧٠، ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص٩٩، الحميرى، صفة، ص١٨٠).

[٥] ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢١٨.

(١٣٥٨– ١٣٥٩م)، أسر ومن كان معه بالأسطول من المسلمين، ففداهم السلطان بسبعة آلاف من الذهب العين[١] ، وأن محمد بن عبد الرحمن بن سعد التميمى الكرسوطى كان من أهل فاس قد أسر ببحر الزقاق، وهو قادم إلى الأندلس في جملة من الفضلاء منهم والده[٢] .

رابعًا: عملية افتداء الأسرى المسلمين في أيدي النصارى منذ بداية عصر بني الأحمر ٦٣٥هـ/١٢٣٧م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م

كان أمراء غرناطة وسلاطينها حريصين على فك أسرى المسلمين من يد من أسرهم يوضح هذا الأمر ذلك العدد الكبير من الرسائل التي وجهها سلاطين غرناطة إلى ملوك آراجون يحثونهم فيها على البحث عن هؤلاء الأسرى المسلمين الذين أسروا عن طريق هؤلاء القراصنة وتسريحهم، ومن ذلك على سبيل المثال رسالة بعث بها السلطان الغرناطي أبو الحجاج يوسف الأول ملك آراجون بيدرو الرابع Pedro IV (٧٣٧– ٧٩٠هـ) (١٣٣٦– ١٣٨٧م)[٣] مؤرخة في ٢٣ من محرم عام ٧٣٨ هـ/١٣ أغسطس ١٣٣٧م يخبره فيها أن مجموعة من القراصنة الآراجونيين أخذوا جملة من المسلمين أسرى مطالبًا ملك آراجون أن يرد الأسرى وما أخذ من المسلمين .[٤]

---

[١] ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص٣٦٣، ص٣٦٤.

[٢] المصدر السابق، جـ٣، ص١٣٣.

[٣] بيدرو الرابع Pedro IV (٧٣٧– ٧٩٠هـ)(١٣٣٦– ١٣٨٧م): اعتلى بيدرو الرابع عرش مملكة آراجون بعد وفاة والده ألفونسو الرابع عام ٧٣٧ هـ/١٣٣٦ م ،وطال حكمه حتى سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٧م؛ إذ استطاع خلال حكمه الطويل هذا أن ينتزع الجزائر الشرقية من يد ابن عمه خايمى الثالث، كذلك ظفر بيدرو باسترداد صقلية في سنة ٧٧٩ هـ/١٣٧٧ م، ومنح حكمها لابنه مرتين، ثم تدخل في الصراع الذى نشب في قشتالة بين هنرى دى تراستمار وأخيه بيدرو القاسى، وانحاز إلى جانب هنرى دى تراستمار، وعاونه بالمال والجهد حتى جلس على عرش قشتالة، توفي بيدرو الرابع ومملكة آراجون أوفر ما تكون قوة واستقرارًا. عن بيدرو الرابع، انظر: عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص١٧٧، ص١٧٨.

[٤] عن هذه الرسالة انظر: عمر سعيدان، العلاقات، جـ١، الوثيقة رقم ٥٢، ص٣٠١– ص٣٠٦، محمد كمال شبانة، يوسف الأول، الوثيقة رقم ٢١، ص٤٨٩، ص٤٩٠، Alarcon y Linares, Los Documentos Arabes, p.104.

وفي ١٥ رجب من عام ٧٣٩هـ/٢٧ يناير ١٣٣٩م بعث السلطان الغرناطى أبو الحجاج يوسف الأول برسالة أخرى إلى ملك آراجون بيدرو الرابع، يذكر فيها أنه حدثت في هذه الأيام بساحل القبطة من أحواز المرية أن غرقت قرقورة[١] كانت خارجة من المرية تتوجه إلى العدوة، ولما قضى الله بغرقها، كانت مقربة من الساحل، فخرج الذين نجوا من الغرق إلى الساحل، فصادفوا بها جفنين حربيين، تعرفنا أنهم وعمرتهما من أهل أرضكم، وأخذ أهل الجفنيين جميع المسلمين والنصارى الذين سلموا من الغرق أسرى[٢] كما وجه سلطان غرناطة محمد الخامس رسالة إلى بيدرو الرابع ملك آراجون مؤرخة في ١٨ صفر من عام ٧٧٦هـ/٢٦ مايو ١٣٧٧م يطلب فيها أن ترد آراجون أسرى المسلمين المأخوذين في غراب[٣] المدينة، وكان عددهم أربعة وعشرين من سكان مملكته [٤].

وقد استمرت عمليات القرصنة حتى القرن (٩هـ– ١٥م) يؤكد ذلك الأمر أنه في عام ٨١٨هـ/١٤١٥م وجه السلطان يوسف الثالث احتجاجًا شديد اللهجة إلى ملك آراجون فرناندو الأول؛ لأن رجاله أسروا بعض المسلمين وشحنة مهمة من سفينة غرناطية عند مضيق جبل طارق، كما أسروا اثنين وعشرين من رعايا المملكة وثلاثة رجال كانوا يعملون بحراسة ساحل طريف[٥]

وهناك أيضًا تلك المعاهدة التى عقدها محمد الرابع ابن إسماعيل الأول مع خايمى الثانى والتى حرص فيها على تأكيد منع القطع والتعرض للأجفان المسلمين أو الاستيلاء على ما

---

(١) قرقورة: مركب بحرى كبير وسريع استخدم لنقل المؤن (محمد ياسين الحموى، تاريخ الأسطول العربى، دمشق، ١٩٤٥م، ص٣١، أحمد محمد الطوخى، مظاهر، ص٢٥١).

(٢) عمر سعيدان، العلاقات، جـ١، الوثيقة رقم ٥٣، ص٣٠٧–ص٣١٠، محمد كمال شبانة، يوسف الأول، الوثيقة، رقم ٢٢، ص٤٩١، ص٤٩٢، Alarcon y Linares, Los Documentos Arabes, p. 106.

(٣) الأغربة: مفردها غراب، وهى من السفن الحربية شديدة البأس، إذ كانت تطلى بالقار، وتسير بالقلع والمجاديف. (السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى، البحرية في مصر والشام، جـ١، ص١٣٢، درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص١٠٤، أحمد محمد الطوخى، مظاهر ص٢٥٠، ص٢٥١).

(٤) Alarcon y Linares, Los Documentos Arabes, p. 416.

(٥) Rachel Arie, El Rino Nasri de Granada, p. 247

فيها أو الإغارة على الحراس والأراضى وأسر المسلمين أو النصارى التابعين للبلدين[١] .
ومثل ذلك نصوص المعاهدة التى عقدت بين محمد بن يوسف الثانى سلطان غرناطة ومرتين ملك آراجون وولده مرتين ملك صقلية التى ذكرناها من قبل، وبها عدد كبير من البنود تخص الأسرى لدى الطرفين [٢] ، كما شملت معاهدة تسليم غرناطة العديد من البنود الخاصة بالأسرى المسلمين، منها أنه إذا كان هناك مسلم أسير، وفر إلى مدينة غرناطة أو البيازين أو أرباضها أوغيرهما، فإنه يعد حرًا ،ولا يسمح لأحد بمطاردته ولا سبيل لمالكه عليه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه إلا إن كان من العبيد أو من الجزائر، وأن يفرج الملكان عن الأسرى المسلمين، سواء أكانوا ذكورًا أم إناثًا من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما إفراجًا حرًا من دون أية نفقة من فدية أو غيرها[٣] ، وأن يكون الإفراج عمن كان من هؤلاء الأسرى في الأندلس في الخمسة أشهر التالية، أما الأسرى الذين بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية، وبعد يومين من تسليم الأسرى النصارى لجلالتيهما يفرج عن مائتين من الأسرى المسلمين، وبعد التسليم أفرج الملكان الكاثوليكيان عن رهائن المسلمين الخمسمائة وفي مقدمتهم ولد أبى عبد الله، وأفرج المسلمون من جانبهم عن الأسرى النصارى وعددهم نحو سبعمائة أسير رجالاً ونساءً، وتعهد القشتاليون من جانبهم أن يطلقوا سراح الأسرى المسلمين في سائر مملكة قشتالة في ظرف خمسة أشهر، بالنسبة للأسرى الموجودين بالأندلس، وثمانية أشهر بالنسبة للأسرى الموجودين في بقية أراضى قشتالة[٤] .
ولم يقتصر الأمر عند النصارى في فك أسراهم على المعاهدات والاتفاقات بينهم وبين سلاطين غرناطة، حيث أسهم الأشراف والنبلاء ورجال الدين النصارى في هذا الافتداء،

---

[١] المرجع السابق، جـ١، الوثيقة رقم ٢٧، ص١٧٣– ص١٧٩.
[٢] عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص١٥٢، ص١٥٣، Alarcon y Linares. Los documentos Arabes, p. 173.
[٣] المقري، نفح الطيب، جـ٤، ص٥٢٦.
[٤] انظر عن بعض هذه الشروط: السلاوي، الاستقصاء، جـ٤، ص١٠٤، ص١٠٥، عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص٢٤٩، ص٢٦١، Las Capitulaciones Para La Entrega de Granada,Por Miguel Garrido Atienza,Granada,p.269-295.

ولم يقتصر الأمر عند المسلمين على الاتفاقات والمعاهدات والمراسلات،حيث أسهم أهل البر والصلاح من النبلاء ورجال الدين والأشراف من المسلمين في عملية افتداء الأسرى المسلمين، مثل ما يذكر عن أم العلا العبد ربه (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) كانت كثيرة الجهد في افتداء الأسرى؛ إذ لجأت إلى تونس مع والدها، وانقطعت لتدريس البنات وحفظ القرآن، وكانت مليحة الخط نسخت بخطها مرارًا كتاب (أحياء علوم الدين) للغزالي، وخصصت ما تتقاضاه من أجر لفك فقراء المسلمين وأسراهم من قيد النصارى[١]. وكان محمد بن أحمد بن محمد الدوسى من أهل غرناطة، ويكنى أبا عبد الله ويعرف بأبى قطبة مطبوعًا على الفضيلة كهفًا للغرباء والقادمين مألفًا للمتعلمين، ثمالاً للأسرى والعانين تخلص منهم على يديه أمم [٢] ، كذلك يذكر عن محمد بن محمد بن عبد الرحمن التميمى من تونس نزيل غرناطة أنه عندما توفي في ربيع الثاني من سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، قصد قبره المرضى وأهل الحاجات، وبقى القراء يقرءون القرآن على قبره مدة طويلة، وأنه تصدق على قبره بجملة من مال، ففدى به طائفة من الأسرى المسلمين[٣] ويحدثنا ابن بطوطة أن سكان مالقة قد اجتمعوا بالجامع الأعظم ومعهم الفقهاء، يجمعون المال برسم فداء الأسارى الذين ذكرناهم من قبل[٤] ، وأن أهل شريش نجحوا في فك عدد من أسرى المسلمين من أهل مدينة سلا، طالبين الأجر والثواب من ربهم [٥] ، بل نجد هبة من ثلاثة عشر دينارًا، كانت

---

[١] ابن عبد الملك المراكشى، الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الأول، ص٤٨٧، ص٤٨٨.

[٢] ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٣، ص١٥٩.

[٣] ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٣، ص٢٧١– ص٢٧٣ .

[٤] يقول ابن بطوطة: "ولما دخلت مالقة، وجدت قاضيها الخطيب أبا عبد الله ابن خطيبها أبى جعفر ابن خطيبها ولى الله تعالى أبي عبد الله الطنجالى قاعداً بالجامع الأعظم ومعه الفقهاء ووجوه الناس، يجمعون مالاً برسم فداء الأسارى الذين تقدم ذكرهم، فقلت: الحمد لله الذي عافاني ولم يجعلني منهم ". (ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢١٩، ص٢٢٠).

[٥] ففي عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م تمكن القشتاليون في عهد ألفونسو العاشر من الاستيلاء على مدينة سلا، ولكن السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى تمكن من محاصرة القشتاليين بمدينة سلا، وضيق عليهم، وقد أيقن القشتاليون باستحالة الاحتفاظ بسلا؛ ولذا كانوا يخرجون الأسرى من أهلها والأموال والأمتعة إلى سفنهم المرابطة أمام سواحلها، وانسحبوا منها يوم الأربعاء الرابع عشر من شوال سنة ٦٥٨هـ/الثانى والعشرين من شهر سبتمبر سنة١٢٦٠م بسرعة دون أن يتزودوا بالماء ولا الطعام، ووصلت منهم سفينة إلى مدينة العرائش لتزويدهم بالماء، فعجزوا، فحاولوا شراءه بما لديهم من أسرى المسلمين، فوافق أهل=

مخصصه لافتداء أسير[١] ، ويذكر أن رجلاً جنويًّا يدعى أستيفان دوريا من المقربين لدى السلطان محمد الثامن استطاع افتداء عدد من رعايا السلطان الغرناطى، كانوا قد وقعوا في الأسر في يد ملك البرتغال [٢] ، كذلك فك اثنان من الفكاكين أسر رجل يدعى أحمد بن أحمد البسطى من يد من أسره [٣]. ومن الطرق الأخرى التى كانت تؤدي إلى الافتداء ما كان مبنيًا على الجهود التى يبذلها الأسير لنفسه، هذا يعنى أن الأسير كان يحاول بمختلف الطرق جمع المال اللازم الذى يتطلبه تحرير رقبته، ففي وثيقة ترجع لعام ٧٠٣ هـ/١٣٠٣م،يصرح قاض مسلم لإسيرين مسلمين يرخص لهما أخذ الزكاة من الجماعات الإسلامية في مملكة بلنسية تحت حكم ملك آراجون، بقصد جمع المبلغ المالي؛ لافتداء أنفسهما [٤].، كذلك كان من الممكن للأسير أن يكتسب هذا المبلغ المالي عن طريق عمل معين ولمدة محدودة يصبح من بعدها حرًا، وعندنا مجموعة من الصكوك التى توضح ذلك؛ إذ يذكر أن أحد الراهبات اشترطت على أسيرين مسلمين لديها أن يقوما بخدمتها في جمع الكرم الذي لديها، وأن يخدما الأرض لمدة خمسة أعوام متوالية، وبعد تلك المدة، يصيران أحرارًا كسائر أحرار المسلمين من أهل ملتهما، وصك آخر تشترط فيه الراهبة نفسها على بعض الأسرى المسلمين لديها أن يقوموا بالخدمة في أرضها لمدة ثمانية أعوام متوالية في جمع الكرم بحومة قريتها، فإن هربوا كلهم أو أحدهم، أو خالطوا قوم سوء، أو وجدوا في

=العرائش على تزويدهم بالماء مقابل إطلاق سراح ثلاثة وخمسين أسيراً، وقيل إن ألفونسو العاشر قرر حرق رؤسائهم؛ بسبب هذه المغامرة الفاشلة، فلما علم قائدهم خوان غرسية بذلك فر في ثلاث سفن إلى الأشبونة (ابن عذارى، البيان، القسم الموحدى، ص٤١٨– ص٤٢٣، ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص٣٠١، مؤلف مجهول، الذخيرة السنية، ص١٠٣، ص١٠٤، السلاوى، الاستقصا، جـ٣، ص٢١، ص٢٢، عنان، دولة الإسلام، جـ٦، ص٥٤٨–ص٥٥٠، حمدى عبد المنعم، المغرب والأندلس، ص٥٢٤ – ص٥٢٨)

[١] أحمد محمد الطوخى، مظاهر الحضارة، ص١٤٣.

[٢] المرجع السابق، ص١٤٣.

[٣] نفسه، ص١٤٣

[٤] Alarcon y Linares,Los Documentos Arabes,pp.402–404,n° 157

سرقة، يخسروا ما كان لهم، ويرجعوا للأسر، وتاريخ هذا الصك يرجع إلى عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م. [١].

أما عن قيمة الفدية لافتداء أي أسير، فكانت تختلف من عصر إلى آخر ومن شخص إلى آخر، فيذكر د. الطوخى أنه لافتداء أسير في القرن التاسع الهجرى (١٥م)، كان يدفع من ١٣٠ إلى ٢٠٠ درهم من الفضة، وكانت تكاليف تحرير عقد قسمة يرتفع إلى ٣٠٠ درهم من الفضة[٢]. ، ويوضح قيمة الفدية التي تدفع لفك أسر الشخص العادي في هذا العصر، ما يذكر من أنه لما افتتح فرناندو الخامس مدينة مالقة، عد أهلها المسلمين رقيقًا يجب عليهم افتداء أنفسهم ومتاعهم، ففرض على كل مسلم أو مسلمة مهما كانت سنه أو ظروفه، الأحرار منهم والعبيد الذين في خدمتهم فدية النفس والمتاع قدرها ثلاثون دوبلاً[٣]. من الذهب الوازن اثنين وعشرين قيراطًا، أو ما يوازي هذا القدر من الذهب والفضة واللآلئ والحرير[٤]. ، وعندنا وثيقة كذلك تتحدث عن أسر لبعض الأندلسيين من أهل المرية، وقد أخذوا إلى برشلونة، وعن قيمة افتدائهم يذكر أن حسنًا الوهرانى كان من أهل المرية أخذ ماله الرايس بالجفن، وأسر وافتك بأربعين دينارًا من الذهب العين، وأن محمد بن سعد المعروف بخريصة من أهل المرية أخذ ماله صاحب الجفن، وأسر وافتك بخمسة وأربعين دينارًا من الذهب العين، وأن محمد بن على الرومي أخذ ماله وأسر وأفتك بثلاثين دينارًا[٥]. يتضح من ذلك أن متوسط سعر الفدية للرجل العادى في هذا العصر تتراوح ما بين ثلاثين

---

[١] انظر عن هذه الصكوك: شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، جـ١، ص٤٠١– ص٤٠٣.

[٢] أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص٢٦٠.

[٣] دوبلة Doubla أو :Doublon لفظ كانت تطلقه الوثائق المسيحية على الدنانير الذهبية؛ وذلك لأن الدينار الموحدى كان ضعف الدينار العادى في الوزن؛ ولذا عرف باسم Doubla عند النصارى(ابن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق د.حسين مؤنس، مدريد، ١٩٦٠، ص١١١، حاشية١، أحمد محمد الطوخى، مظاهر الحضارة، ص٢٧٢

[٤] عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص٢١٧، وعن سقوط مالقة انظر: مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص٢٤، ص٢٥.

[٥] عمر سعيدان، العلاقات، جـ١، الوثيقة رقم ٦٢، ص٣٥٠– ص٣٥٤، محمد كمال شبانة، يوسف الأول، الوثيقة رقم ٢٥، ص ٤٩٦ .

إلى خمسين دينارًا ذهبيًّا ،[١] ويبدو أنها قيمة مرتفعة نسبيًّا، يؤكد ذلك أن موظفًا غرناطيًا يدعى عيسى بن إدريس قد وقع في الأسر في آراجون في عهد خايمى الثاني لم يستطع أن يسدد قيمة فديته التى قدرت بخمسة آلاف دوبلة ،[٢] وأن مقاتلاً غرناطيًا يسمى محمد بن محمد بن سهل قد ظل في الأسر مده طويلة حتى دفعت له الفدية المطلوبة[٣]. ، وأن محمد بن سودة بن إبراهيم بن سودة المرى أسر هو وأولاده، ويبدو أنه لم يستطع فكهم، فمات أسفًا لما جرى عليهم[٤]، ويبدو أن قيمة الفدية تحدد حسب أهمية الشخص الاجتماعية ، فمثلاً عندما أسر سلطان غرناطة أبو عبد الله محمد، لم تقتصر قيمة الفدية لإطلاق سراحه على الأموال فقط، بل اشتملت كذلك على العديد من الشروط الأخرى،[٥] وقد يطلق سراح الأسير برهن، بمعنى أن يطلب من الأسير الانطلاق إلى بلده؛ لتأمين ثمن الفدية، في مقابل ارتهان أبنائه أو ذويه.

---

[١] وعندنا أيضًا وثيقة مؤرخة بتاريخ ٢٨رجب سنة٧٤٥ هـ/الموافق ٥ ديسمبر سنة ١٣٤٤م توضح قيمة تلك الفدية، وهى عبارة عن رسالة بعث بها يوسف الأول إلى بيدرو الرابع ملك آراجون يذكر فيها أن بعض القراصنة القطلانيين قد أغاروا على جفن الزجاج، وأخذوا من أهل المرية شخصين يدعى أحدهما على بن بكرون الصايغ، والآخر سعيد بن أحمد الحجام، وقد اشتراهما نصرانى من بلنسية، وفداهما باثنين وخمسين دينارًا ذهبًا عينًا، فطالب يوسف الأول بيدرو الرابع بإنصاف الأسيرين وإرجاع الفدية المقبوضة والمحددة باثنين وخمسين دينارًا من الذهب العين، ويتضح من ذلك أن قيمة الفدية للشخص الواحد بلغت مابين ٢٨ و٣٢ دينارًا ذهبيًا.(عمر سعيدان، العلاقات، جـ١، الوثيقة رقم ٦٥، ص٣٣٨– ص٣٤٠)

[٢] أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص١٤٢. F.D.Gazulla, La redencion de cautivos entre los musulmanes, en(B.R.A.B.L)t. Barcelona,1927-1928,pp.239-240

[٣] أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص١٤٢.

[٤] ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٣، ص١٨٢.

[٥] أدرك ملكا قشتالة ما لهذا الأمير من أهمية، وأخذا يدبران أفضل الوسائل للاستعانة به، وبعد إمعان البحث والتدبير رؤى أن يفرج عن الملك الأسير لقاء أفضل الشروط التى يمكن الحصول عليها في تحقيق مأربهما في مملكة غرناطة، ومنها أن يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرناندو وزوجته أيسابيلا وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوبل من الذهب، وأن يفرج في الحال عن أربعمائة من أسرى النصارى الموجودين في غرناطة، يختارهم ملكهم، ثم يطلق كل عام سبعين أسيراً لمدة خمسة أعوام، وأن يقدم أبو عبد الله ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الأمراء والأكابر، وضمانًا لذلك تعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما بالإفراج عن أبى عبد الله فوراً، وأن يعاوناه في فتح المدن الثائرة عليه في مملكة غرناطة، وأن تستمر الهدنة لمدة عامين من تاريخ الإفراج عن السلطان الأسير.عن هذه الشروط انظر: عنان، دولة الإسلام، جـ٧، ص٢٠٤، ص٢٠٥.

الخاتمة:

وهكذا استمرت حركة الأسر مابين الطرفين المسلم والنصرانى حتى سقوط آخر معقل للمسلمين في الأندلس، ونعني به غرناطة، وبسقوط غرناطة في أيدى الأسبان ينتهى الحكم الإسلامي في الأندلس، ويصبح المسلمون الذين فضلوا البقاء في الأندلس تحت رحمة هؤلاء النصارى؛ لتبدأ مأساة أخرى عرفت باسم مأساة الموريسكين أو العرب المتنصرين.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً المصادر العربية:

- ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى) ت٦٥٨ هـ/١٢٦٠م الحُلة السيراء، تحقيق د.حسين مؤنس، ط١ ، ١٩٦٣.

٥- التكملة لكتاب الصلة، تحقيق السيد عزت العطار، ١٩٥٥، ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت٥٧٨ هـ/١١٨٣م

- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي) ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧؛ تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٤٨.
- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبى) ت٤٦٩هـ/١٠٧٩م ، المقتبس (السفر الثانى) ، تحقيق ، د. محمود علي مكي، ط١ ، الرياض،٢٠٠٣.
- المقتبس في أخبار بلد الأندلس تحقيق، د عبد الرحمن حجى، بيروت ، ١٩٨٣. ابن خرداذبه (عبيد الله بن عبد الله) عاش في القرن ٣ هـ/٩م. المسالك والممالك، ليدن ،١٨٨٩.
- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله)ت٧٧٦ هـ/١٣٧٤م ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من قبل ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام أو تاريخ أسبانيا الإسلامية.
- القسم الثاني الخاص بالأندلس، نشر ليفي برفنسال، بيروت ، ١٩٥٦. الإحاطة في أخبار غرناطة، نشر وتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٧٥. ج٣،ص٤٦٦؛
- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد) ت٨٠٨ هـ/١٤٠٥م ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، بيروت ١٩٦٨. المقدمة ، المكتبة التجارية .

– ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس) ت٦٨١ هـ/١٢٨٢م، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، بيروت ١٩٧١
– ابن عبد البر (أبى عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي) ت٤٦٣هـ/١٠٧٥م، القصد والأمم في التعريف بأصول انساب العرب والعجم، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
– ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم القرشي) ت ٢٥٧هـ/٨٧١م، فتوح افريقية والمغرب والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت ، ١٩٦٤.
– ابن عبد ربه (أحمد بن محمد الأندلسى) ت٣٤٩هـ/٩٤٠م، العقد الفريد ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢.
– ابن عذارى (أبو العباس احمد) ت بعد عام ٧١٢ هـ/١٣١٢م :
٣٦ – البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب الجزء الأول والثاني نشر كولان وليفي بروفنسال ، ط٣ ، ١٩٨٣.
– ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر القرطبي) ت٣٦٧هـ/٩٧٧م ، تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق إبراهيم الابياري، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٩
– ابن النديم (محمد بن إسحاق) ت٣٨٣هـ/٩٩٣م، الفهرست ، بيروت ، ١٩٧٨
– الإشبيلى ت ٥٧٥هـ/١١٧٩م ، فهرسة ابن خير، بيروت ، ١٩٨٩.
– الأصطخري (إبراهيم بن محمد الفارسي الأصطخري المعروف بالكرخي) كان حيا في النصف الأول من القرن الرابع الهجرى/١٠م، المسالك والممالك تحقيق محمد جابر عبد العال الحسينى ، مراجعة محمد شفيق غربال، ١٩٦١ .
– البكرى (أبو عبد الله عبد الله بن عبد العزيز المرسى) ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م، جغرافية الأندلس وأوربا تحقيق د. عبد الرحمن حجى ، بيروت ، ١٩٦٨.
– الحميدى (أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الازدى) ت٤٨٨هـ/١٠٩٥، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوى النباهة والشعر، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، ١٩٥٢.

- الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى) ١٠٨٩هـ/١٦٨٣م، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ، د.ت
- الذهبى (الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد ان) ٧٤٨هـ/١٣٤٧م ، العبر في خبر من غبر، بيروت، ١٩٨٥، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير حوادث وفيات ٢٣١-٢٤٠هـ، ٢٦١- ٢٨٠ هـ، تحقيق د.عمر عبد السلام تدمر، دار الكتاب العربى، ط٣، ١٩٩٣.
- الرقيق القيروانى (أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم) ت في منتصف القرن ٥هـ/ ١١م، تاريخ إفريقية والمغرب تحقيق د .عبد الله العلى الزيدان ود. عز الدين عمر موسى، ط١، ١٩٩٠.
- الزهرى (أبو عبد الله محمد بن أبى بكر) ت أواسط القرن ٦هـ/١٢م ، الجغرافية تحقيق محمد حاج صادق، نشر مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ.
- صاعد الاندلسى (أبى القاسم صاعد بن احمد)٤٦٢هـ/١٠٧٠، طبقات الأمم، تحقيق وتعليق د. حسين مؤنس ، دار المعارف ، ١٩٩٣ .
-الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك) ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م، الوافي بالوفيات ، طبعة فرانز ستايز بفسبادن، ١٩٧٤ ،
- الضبى (أبو جعفر احمد بن يحيى القرطبي) ت٥٩٩ هـ/١٢٠٣م، بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس، بيروت ، ١٩٨٩ .
- المقرى (شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني) ت١٠٤١ هـ/١٦٣١م، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ، ١٩٦٨.
- مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق لويس ولينا ، مدريد ، ١٩٨٣.
- اليعقوبى (احمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب) ت٢٨٢ هـ/٨٩٥م، كتاب البلدان، دار التراث العربى ،ط١ ،١٩٨٨.

ثانياً:- المراجع العربية الحديثة والمعربة:

- أبو الفضل (د. محمد احمد) ، دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٦
- الجيوسى (سلمى الخضراء) الحضارة العربية في الأندلس ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٨ .
- الحجي (د.عبد الرحمن علي) العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع الهجري، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد،١٩٨٤،المجلد٢٢
- حسين (د.حمدى عبد المنعم) التاريخ السياسي لقلعة رباح ودورها في حوادث الصراع بين المسلمين والنصارى ، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٣، تاريخ وحضارة المغرب والأندلس ، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٥.
- حومد (أسعد) محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط٢ ، ١٩٨٨.
- خليل (منى محمود) رسالة ماجستيرغير منشورة بعنوان دور طليطلة في العلاقات بين ملوك الطوائف حتى سقوطها على يد الفونسو السادس (٤٢٨ – ٤٧٨ هـ / ١٠٣٦ – ١٠٨٥ م) ، إشراف د . أحمد إبراهيم الشعراوي، كلية الآداب، جامعة عين شمس ، ٢٠٠٧.
- الشيخ (محمد محمد مرسى) الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادى ، نشر مؤسسة الثقافة الجامعية ، ١٩٨١.
- صبره (عفاف): دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، دار الكتاب الجامعي ،١٩٨٥.
- العبادى (د.أحمد مختار) صور من حياة العرب والجهاد، منشأة المعارف ، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٠، في تاريخ المغرب والأندلس ، دار المعرفة الجامعية ، ط٢، الإسكندرية ، ٢٠٠٥.

- عبد الحليم (د. رجب محمد) العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، دار الكتاب المصرى ، ١٩٨٥
- عويس (د. عبد الحليم) العصبية القومية وأثرها سقوط الأندلس ، دار الصحوة ، ١٩٩٤ ١٩٨٠
- كحيلة (عباده عبد الرحمن رضا) تاريخ النصارى في الأندلس ، ط ١ ، ١٩٩٣
- المجالى (د. سحر عبد المجيد مناور) تطور الجيش العربى في الأندلس ، عمان ، ١٩٩٦.
- مونتغمرى وات ، في تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ترجمة محمد رضا المصرى ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٨.

المراجع الأوربية

- F.simonte,Historia de Mozarabes Espana,P.788 Los, Collectanea Christiana Orientalia (2006), pp. 105-142; ISSN 1697-2104
- Fernandes (Luis suarez) Junall La frontera de Granada,
- J.Ramos, loscertales elcautiverio enla corona de Aragon, pp. 185-186.
- J.cossio, cautivos de Moros en siglo XIII,
- Leopoldo Torres balbás, las Mazmorras de la Alhambra, Al – Andalus, vol IX, 1944, Fasc.I,.